جدلاً بيزنطياً كله، بل كانت له خلفيته الفكرية الواضحة. ومع أنه يتجنب الدخول في مناقشة تفصيلية لطروحات الجانبين لأن هذا ليس من مهمته، فهو يقرر أن ممثلي منظمات المقاومة، كانوا يؤيدون وجهة النظر التي تقول: إن التحرير هو طريق الوحدة، ثم يقول: «وقد يبدو ذلك الجدال، حين ننظر اليه اليوم، تافهاً. إلا أنه كان، في تلك الفترة، ما يزال على أشده بين حلقات القوميين» (ص ٥٤).

هذه العبارة تترك انطباعاً بأن المؤلف يعتبر أن الجدل حول هذه المسألة قد حسم الآن أو توقف، مما يدل على أنه لم يواكب أدبيات ومواقف التيارات العربية القومية في الفترة الأخيرة. ويبدو، فضلاً عن هذا، كأن فيصل حوراني لا يدرك فعلاً، أهمية وخطر الضربة التي يوجهها الى هذه التيارات، متعددة الرموز، حين يهوي عليها منقضاً بأسلحة الاجتهاد، أو بالأحرى، بأسلحة المعالجة الموضوعية. وهو يعد الاشارة الى أن انتصار الثورة الجزائرية، وانفكاك وحدة مصر وسوريا، هما اللذان أججا الجدال في تلك المسألة في (ذلك الزمن) – الذي يبدو وكأن فيصل يعتبره قد ولّى – يلخص، رأيه في هذه النقطة بالقول: «ان وجهتي النظر كلتيهما تنطويان على خطأ جوهري، من غير أن يعني ذلك تصويب أو تسفيه البراهين التي قدمها كل من الجانبين. فالوحدة العربية لا تتحقق بفعل عامل واحد، حتى لو كان هذا العامل هو تحرير فلسطين...» (ص ٥٥). ثم يشرح استنتاجه هذا قائلاً: «وذلك لأن قيام الوحدة العربية، بل ان الاتجاه نحوها، مرهون بتحقيق الغلبة للفئات والطبقات والقوى السياسية التي لا يضر قيام الوحدة بمصالحها، وتحقيق هذه الغلبة يرتبط بعوامل عدة ومتشابكة: بشرية وسياسية واقتصادية واجتماعية، محلية وعربية ودولية وغيرها. ويظل ذلك صحيحاً سواء وجدت اسرائيل أو لم توجد» (ص٥٥). ثم يضيف مسألة غاية في الدقة والحساسية، بالنسبة لما قد تثيره هذه النقطة من جدال في أوساط التيار القومي بمختلف وجوهه، حين يقول: «ومن الناحية الثانية فان توفير الامكانيات اللازمة لتحقيق مجابهة فعالة للصهيونية ولاسرائيل لا يستلزم بالضرورة ان تتحقق الوحدة العربية» (ص٥٥). ثم يأتي ببرهانه – إن جاز التعبير – الثالث ليوجه ضربة خطيرة الى منطق وبديهيات الفكر القومي العربي وحركته باتجاهاتها، حين يقول: «وفي المتناول أمثلة كافية، تبين كيف أن حركات التحرر الوطني العربية استطاعت أن تحقق انجازات كبيرة، حين تعاونت فيما بينها في أكثر من بلد واحد، في حين انها لم تكن متحدة وهي تفعل ذلك، فضلاً عن أن تكون بلدانها متحدة. بل ان هذه الحركات حققت الانجازات حين كانت تعتمد على امكانياتها في بلدها وحدها» (ص٥٥).

ولا ندري لماذا يعتبر المؤلف أن الجدال في هذه المسألة اليوم يعتبر «تافهاً»، إلا اذا كان فيصل حوراني، نفسه، لا يدرك خطورة تفنيده لهذه المقولات. والخطورة هنا نابعة من كون هذا المنطق المسلح بالموضوعية، يهوي بكل ثقله على بديهيات ومسلمات رموز وتجمعات وأنظمة لا تزال حاضرة، وتطرح نفس الطروحات، وإن غلّبت المواقف العملية، اليوم، والتي تعكس نظرتها الى الجدال والتنظير. وهذه الرموز والتجمعات والأنظمة لم تُسقط حججها بعد، على الرغم من التجارب المريرة التي تعرضت لها.

وأمام منطق فيصل حوراني المتماسك قد يرى القارىء أن استعراض وجهة نظر الذين يتبنون النظرة المعاكسة أمر مشروع، بل هو مطلوب وضروري.

ومن الانصاف، بل ومن حق القارىء، أن يتساءل: ترى كيف يرد القوميون على مقولة المؤلف الأولى، التي تتلخص في جملة: «الوحدة العربية لا تتحقق بفعل عامل واحد حتى لو كان هذا العامل هو تحرير فلسطين» ؟

من حيث المبدأ.. الرد معروف: سيوافقونه. إلا أن متابع أدبيات الفكر القومي سيلحظ منطقاً معاكساً يتمتع، هو أيضاً، بأسلحة ليست بالمتضعضعة. ولعل النظرة، الأكثر معاكسة لمنطق فيصل حوراني، هي تلك التي خصص لها د. منيف الرزاز كتيباً كاملاً بعنوان «الوحدة العربية هل لها من سبيل» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥).

يبدأ د. منيف الرزاز كتيبه بطرح سؤال، يصب في صلب المسألة التي يطرحها فيصل حوراني، فيتساءل عن سبب عدم قيام الوحدة العربية حتى الآن، ويقول ان الوحدة مطلب جماهيري، وهي هدف